

الفصل الخامس عشر

تسديد الديون

انتهت الاحتفالات التي جرت في الحج، وقد أتم النبي ﷺ كافة الشعائر وأراد العودة إلى المدينة، فانطلق الحجاج الذين قدموا معه، ووصلوا أخيراً إلى المدينة وعادت الحياة إلى مجراها، وقد عرف الكثير من المسلمين وتعلموا مبادئ الإسلام والقرآن، فضلاً عن عناصر الممارسات الدينية بقواعدها وشروطها، وقد حُصِّلَت الزكاة وفق المعايير التي حددها حديثاً الوحي وممارسة النبي (1). وهكذا نُظِّمَت جميع شعائر أركان الإسلام الخمسة، بما في ذلك الحج، الذي تم القيام به للتو، وتلقت الجماعة الإسلامية المعلومات اللازمة لتعيش الإسلام في الحياة اليومية وتواجه مسائل جديدة تنشأ في المستقبل.

سأل النبي ﷺ معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الذي عيَّنه قاضياً في بيئته الجديدة في اليمن: «بِمَ تحكم؟» فأجاب معاذ: «بكتاب الله» ثم سألته النبي ﷺ: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» فقال معاذ: «سوف أحكم بسنة رسول الله». وسأل محمد ﷺ ثانية: «فإن لم تجد في سنة رسول الله؟» فأجاب معاذ بثقة: «لن أدخر جهداً في أن أجتهد». رضي النبي ﷺ عن هذه الإجابة وقال: «الحمد لله الذي هدى رسول الله لما يرضي الله ورسوله» (2).

لقد تضمن هذا التدرج في إجابات معاذ بن جبل رضي الله عنه جوهر تعاليم النبي وقدم للجماعة الإسلامية سبل اتباعه والإخلاص له عبر العصور: كتاب الله - القرآن - وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم (التي يشار إليها في مجموعها بكلمة «السنة» - هما المرجعان الرئيسان، وعند مواجهة وضع جديد، فإن على المسؤولين عن تلك التعاليم ممارسة ذكائهم النقدي والمنطق وإبداعهم الشرعي لإيجاد إجابات جديدة تحافظ على المبادئ الإسلامية وتناسب الوضع الجديد، أما أسس العقيدة والعبادة فهي لا تخضع للتغير، لا هي ولا المبادئ الأساسية للأخلاق، لكن تنفيذ تلك المبادئ الأخلاقية والاستجابة للأوضاع الجديدة التي كانت المصادر القرآنية، والسنة غامضة أو صامتة بشأنها كانت تحتاج إلى إجابات متكيفة مع الظروف الخاصة، وقد فهم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فقد أعطاهم المعرفة والثقة اللازمين للمضي قدماً والانتباه للعالم وتقلباته، وهم واثقون بأنه أصبح لديهم السبل الروحية والفكرية ليظلوا استناداً إليها مخلصين لرسالة خالقهم.

حملة وطبيعة

بعد بضعة أشهر من عودة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، في السنة الحادية عشرة، للهجرة، قرر النبي صلى الله عليه وسلم إرسال حملة إلى الشمال، قرب مؤتة وفلسطين، حيث قتل جعفر وعبد الله وزيد قبل بضع سنوات. وقد دهش الجميع عندما ولى القيادة لأسامة الشاب، ابن زيد - رضي الله عنهما - الذي لم يكن عمره يزيد عن العشرين، مع أن هذا الجيش البالغ عدد أفرادها ثلاثة آلاف جندي كان فيه عمر رضي الله عنه وغيره من كبار الصحابة⁽³⁾. هذا الاختيار أثار الكثير من النقد، لكن النبي صلى الله عليه وسلم تصدى له سريعاً ووضع

نهاية لجميع الحجج حين قال: «لئن قلتُم في إمارة أسامة لقد قلتُم في إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق بالإمارة مثلاً كان أبوه خليقاً بها قبله» (4). في الماضي، اعترض بعض المسلمين على اختيار زيد لأنهم كانوا لا يزالون يعتبرونه عبداً، رغم أنه حرٌّ، والآن اعترض بعضهم على ابنه، ربما بسبب أبيه، ولكن على الأغلب بسبب صغر سنه، فمن خلال اختيار النبي ﷺ لأسامة فإنه قد أفهمهم بأنه لا المنبت الاجتماعي ولا عمر الإنسان يحولان دون ممارسته لسلطته وقوته إذا كانت تتوافر فيه المؤهلات الروحية والفكرية والأخلاقية، فلا بد من أن يتذرع المرء بالحصافة وحسن الإدراك عبر إتاحة المساواة الحقيقية للفرص لأكثر الأفراد فقراً في المجتمع والثقة بالشباب بحيث يتمكن الجميع من التعبير عن مهاراتهم ومواهبهم، وعلى صعيد أعم، فإن هذا كان درساً رائعاً في التواضع، موجهاً للصحابة الأكبر سناً، فقد كان عليهم خوض غمار الجهاد الأكبر المتمثل بإطاعة رجل كان من الممكن أن يكون بعمر أبنائهم، ويتذكرون بذلك أن عمرهم محدود، كما هو الحال بالنسبة لأي إنسان، فبهذا الاختيار لأسامة، علمهم النبي ﷺ أن الزمن يعمل على تآكل طاقة الإنسان وأنه يجب على المرء أن يتحلى بحكمة كافية تجعله يتعلم كيف يتحلى ويفوض بالسلطة لمن هم أصغر منه سناً ويتمتعون بقوة كافية تمكنهم من الإبداع والبناء..

وهكذا بعد أن أوصى النبي ﷺ أسامة، طلب منه أن ينطلق على الفور، غير أن مرض النبي ﷺ المفاجئ أدى إلى تأخير الرحيل وظل الجيش ينتظر قرب المدينة طيلة الأيام التي كان وضع النبي ﷺ فيها موضع ترقب، ولكن بعد بضعة أسابيع، وبناء على رغبة النبي ﷺ، فقد

طلب أبو بكر رضي الله عنه من أسامة الانطلاق في الحملة، وقد ذكره بوصايا النبي صلى الله عليه وسلم بشأن أخلاق الحرب، حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم كان دائماً يؤكد على المبادئ التي يتعين على المسلمين مراعاتها في تعاملهم مع الأعداء، أمره أبو بكر ⁽⁵⁾ «لا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتطعوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له» ⁽⁶⁾. هذه التعاليم كانت مبادئ أساسية وتم إبلاغها إلى أسامة في ضوء ما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قاله في مختلف المناسبات بشأن الحرب واحترام الطبيعة أو كيفية معاملة الحيوانات، ففي بضع جمل أوجز أبو بكر رضي الله عنه جوهر تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد.

فقبل بضع سنوات، بعد نهاية معركة حُنين، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد مرّ بجماعة من الناس واقفين حول امرأة ملقاة على الأرض وسمع أن خالد ابن الوليد رضي الله عنه (الذي كان قد دخل حديثاً في الإسلام) قد قتلها، فغضب غضباً شديداً وطلب إبلاغ خالد بأن: «رسول الله يحرم قتل الأطفال والنساء والرقيق» ⁽⁷⁾. كما أنه أنحى عليه باللائمة حين قتل رجالاً كانوا قد استسلموا بعد إحدى المعارك، ففي كلتا الحالتين كانت الرسالة هي ذاتها: يجب قتال جنود الأعداء فقط، والإبقاء على جميع الذين لم يشتركوا مباشرة في الصراع المسلح أو لم يعودوا يستطيعون التسبب بأي أذى، لقد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم بوضوح قبل إرسال حملة مؤتة: «لا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الأطفال ولا أصحاب الصوامع» ⁽⁸⁾. فلم تكن الحرب مرغوبة أبداً،

ولكن عندما كان المسلمون ملزمين بخوضها دفاعاً عن أنفسهم أو لأن بقاءهم كان في خطر، فإنه كان عليهم الاقتصار بصراحة على ما كان لازماً من أجل مقاتلة قوات العدو المسلحين أو المصممين على القتال، فإذا جنحوا للسلم أو استسلموا، يجب وقف الحرب حسب أوامر القرآن: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (9).

لقد رأينا أن النبي ﷺ استثنى في ذلك حين قطع أشجار النخل خلال حصار بني النضير هذا الاستثناء، الذي ورد في القرآن، أثبت قاعدة احترام الطبيعة، لاسيما في وقت الحرب، إن الخلق مليء بالآيات التي تدل على كرم الخالق، لذا فهو مكان مقدس: فاحترامه هو بمنزلة الصدقة أو الدعاء، فحماية النخل والأشجار المثمرة والنباتات الأخرى في وقت الحرب هو نتيجة لتعاليم أعم صادرة عن النبي ﷺ لجميع المسلمين، في أحد الأيام مر النبي ﷺ بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، الذي كان يتوضأ، فقال له النبي ﷺ: «لم هذا الإسراف؟ يا سعد؟»، فسأله سعد: «هل يوجد إسراف حتى عند الوضوء؟»، فأجاب النبي ﷺ: «نعم، حتى عندما تستخدم ماء نهر جار» (10). فالماء عنصر أساس في جميع التعاليم المتعلقة بالممارسات الشعائرية، إذ إنه يمثل تطهير الجسد والقلب من الأشياء الخارجية المادية، والأشياء الروحية الداخلية (11). لكن النبي ﷺ علم سعداً وصحابته الآخرين ألا يعتبروا أبداً الماء، أو أي عنصراً آخر في الطبيعة، مجرد وسيلة لتزكيتهم الروحية، بل على العكس، فإن احترام الطبيعة والاعتدال في استخدامها هو في حد ذاته، يُعد عملاً وارتقاء روحياً، وهدفاً في سعيهم لمرضاة الخالق.

يدل إصرار النبي ﷺ على عدم الإسراف في أي مورد طبيعي، «حتى لو كنت على نهر جارٍ» يدل على أنه وضع احترام الطبيعة على مستوى مبدأ أساس يجب أن ينظم السلوك مهما كان عليه الوضع، وبصرف النظر عن العواقب، وهذا ليس علم تبيؤ (إيكولوجيا) منبعثاً من توقع حدوث كوارث (تنشأ عن أعمال البشر) بل هو نوع من «إيكولوجيا المصدر» التي تختبر علاقة الناس بالطبيعة على أساس صخرة أخلاقية مقترنة بفهم أعمق الدروس الروحية⁽¹²⁾. يجب أن تستند علاقة المؤمن بالطبيعة إلى التأمل والاحترام. قال النبي ﷺ مرة: «إذا قامت الساعة وفي يدي أحدكم فسيلة فليغرسها»⁽¹³⁾. وهكذا، فإن ضمير المؤمن يجب أن يستند حتى النهاية، إلى هذه العلاقة الحميمة مع الطبيعة، إلى الحد الذي يجب أن تكون عليه آخر أعماله مقترنة بتجديد الحياة ودوراتها.

وهذا الدرس نفسه كان يتجلى طيلة حياة النبي ﷺ فيما يتعلق بالحيوانات، لقد رأينا أنه عندما كان متوجهاً إلى مكة مع جيشه فإنه طلب نقل جراء ملقاة على الطريق لحمايتها، إن كون النبي ﷺ أصر على الرفق بالحيوانات حتى في حالة الحرب هو -مرة أخرى- نتيجة مباشرة لدروسه الأساسية في هذا الصدد، كان محمد ﷺ يحب القطط بشكل خاص، لكنه بشكل أعم كان دائماً يشعر الصحابة بضرورة احترام جميع أنواع الحيوانات، مرة أخبرهم بالقصة التالية: «كان رجل يسير في الطريق في حر شديد، فرأى بئراً ونزل فيه ليطفئ عطشه، وعندما صعد من البئر، رأى كلباً يلهث من العطش فقال لنفسه: «هذا الكلب عطشان مثلي». فعاد ونزل في البئر ثانية وملاً حذاءه بالماء وصعد من البئر وقد أمسكه بين أسنانه وأعطاه إلى الكلب ليشرب فكافأه الله على ذلك وغفر

له خطاياهم»، ثم سئل النبي: «يا رسول الله، أفنؤجر لرفقنا بالحيوانات؟» وأجاب النبي ﷺ: «في كل كبد رطب صدقة»⁽¹⁴⁾. وفي مناسبة أخرى، قال: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض»⁽¹⁵⁾. من خلال هذه الأحاديث ومن خلال هذه القدوة أن الرفق بالحيوانات جزء من التعاليم الإسلامية الأساسية، وقد استفاد من كل مناسبة للتأكيد على ذلك البعد.

وهكذا فيما يتعلق بالتضحية بالحيوانات من أجل لحمها فإن النبي ﷺ لم يقتصر على أمر المسلمين بمراعاة هذه الشعيرة وقول: «بسم الله، والله أكبر»، والتي تمكن من التضحية بالحيوان بغية أكله، فقد كان يأمرهم بمعاملة الحيوان بأحسن طريقة وتقادي أي تسبب بألم لا ضرورة له للحيوان، في أحد الأيام طرح أحد الأشخاص حيوانه أرضاً وأخذ يسن سكينه أمام الحيوان، فانبرى إليه النبي ﷺ وقال: «أتريد أن تذبحه مرتين، لم لم تقم بسن سكينك قبل أن تطرحه أرضاً؟»⁽¹⁶⁾.

كان محمد ﷺ يطلب من الناس أن يتقنوا عملهم، فبالنسبة لمن يضحى بالحيوانات كان هذا يتجلى بوضوح في احترام حياتهم وكرامتهم ككائنات حية ولا يقتلوا إلا عند الضرورة وتجنّبهم أي ألم غير لازم⁽¹⁷⁾. إن التكبرة التي تقتن بالتضحية يجب أن تفهم بأنها الجملة التي تؤكد في واقع الأمر أن الحيوان كان يعامل أثناء حياته وفق تعاليم الله ورسوله، وقد هدد النبي: «من قتل عصفوراً أو حيواناً أكبر دون احترام حقه في الوجود سيحاسبه الله عليه يوم القيامة»⁽¹⁸⁾. وهكذا فقد علم محمد ﷺ وجوب احترام حق الحيوان وعدم التسبب له بالألم، ووجوب إطعامه

ما يحتاج إليه، وأن يعامل معاملة حسنة وأن هذا ليس موضع مساومة لا بل هو جزء من واجبات البشر ويجب أن يفهم بأنه واحد من شروط ارتقائهم الروحي.

المرض

بعد بضعة أسابيع من شهر رمضان من السنة الحادية عشرة للهجرة، ذهب النبي ﷺ إلى أحد حيث جرت المعركة الثانية بين المسلمين وقريش وأدى صلاة الوداع على الرجال الذين قتلوا هناك، ثم عاد إلى مسجد المدينة وجلس على المنبر وخاطب المؤمنين⁽¹⁹⁾. قال أولاً: «إني بين أيديكم فرط وأنا عليكم شهيد». ثم نصحهم واختتم كلامه بالقول: «لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها»⁽²⁰⁾. هذه الكلمات أوضحت بأنه كان يشعر بأن عليه أن يستعد لمغادرة هذه الحياة، وفي الوقت نفسه أعرب عن خوفه من مستقبل جماعته الروحية: قال بأن الإيمان لن يفارقهم، لكن العالم وأوهامه من شأنه أن يأسرهم ومن سوء الحظ أن الاثنين كلاهما سيوجدان عندهم، كان النبي ﷺ في واقع الأمر يعبر عن خوف بدا وأنه نبوءة: فسوف يظلون يؤدون الصلاة لكنهم سينقسمون في سعيهم إلى الأمجاد والثروة والسلطة، أو ولاءاتهم المختلفة، الأمر الذي سيجعلهم ينسون الأخوة التي كانت توحدهم.

في الليلة التي تلت ذلك اليوم، ذهب النبي ﷺ إلى البقيع، في المدينة، ليسلم على سكانه وكان يمزج دعواته بهذه الكلمات: «أنتم السابقون ونحن اللاحقون». وفي طريق عودته شعر النبي ﷺ بألم شديد في رأسه لم يغادره طيلة أسبوعين تقريباً وجعله يلزم الفراش في الأيام الأخيرة من حياته⁽²¹⁾.

في أول الأمر ظل يصلي بالناس الصلوات الخمس، رغم ألم الرأس وحمى كانت تسبب له ألماً شديداً، ومع مرور الأيام ازداد المرض سوءاً واضطر النبي ﷺ إلى الرقود أوقاتاً أطول فأطول، كان في ذلك الوقت يقيم مع زوجته ميمونة - رضي الله عنها - (حيث كانت زوجاته يتناوبن في استقباله وظل يسأل عن الزوجة التي سيزورها في اليوم التالي، ثم اليوم الذي بعده. وقد فهمت ميمونة أنه كان يريد الذهاب إلى بيت عائشة - رضي الله عنها - فتحدثت إلى بقية الزوجات عن ذلك فقررن انتقال النبي ﷺ على الفور إلى حجرتها، وكان قد أصبح يشعر بضعف شديد بحيث اضطر العباس وعلي - رضي الله عنهما - لمساعدته للوصول إلى هناك.

كان قد مضى عليه بضعة أيام عند عائشة - رضي الله عنها - عندما ازدادت شدة الحمى، فجأة أصبح رأسه يؤلمه بشدة أكبر وفقد وعيه، وعندما عاد إلى وعيه، طلب أن يصب على وجهه سبع قرب من الماء، وبعد بضع ساعات شعر بتحسن قليل وقرر أن يذهب إلى المسجد وقد ربط حول رأسه رباطاً، فجلس على المنبر وخاطب الصحابة الحاضرين وتحدث إليهم عن القبور وأصر على أنه يجب عليهم ألا يحولوا قبره إلى مكان عبادة: «لا تتخذوا قبوري مسجداً»⁽²²⁾. لقد كان رسول الله ﷺ، لكنه ظل إنساناً؛ وكان يعرف مدى حب صحابته له فحذرهم من ارتكاب الأخطاء التي ارتكبتها الذين كانوا قبلهم والذين نسبوا إلى أنبيائهم ومرشديهم صفات خارقة بلغت بهم حد العبادة⁽²³⁾. فالله وحده هو الجدير بالعبادة.

ولإتمام هذه التذكرة ببشريته، نهض النبي ﷺ وسأل إن كان مديناً لأصحابه بأي شيء، فوقف رجل وذكّر النبي ﷺ بأن له عليه دين بمبلغ

ثلاثة دراهم: فأمر النبي ﷺ بدفع المبلغ له على الفور، كان النبي ﷺ، استناداً إلى أوامر الوحي، لا يصلي على قبر أحد من المؤمنين إلا إذا تم الوفاء بكافة ديونه، وكان يعرف إنه حتى إذا ضحى الإنسان بحياته في سبيل الله، فإن الدين يظل عيناً عليه لا يغفره الله له. فيجب أن يموت دون أن يكون لأحد عليه أي دين وأن لا يحمل معه أي ذنب لم يغفر ولا جرح لم يتعافى ولا أمانة لم تؤدي ولا رسالة لم تسمع.

وجلس النبي ﷺ على المنبر ثانية وقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله»⁽²⁴⁾. عند سماع أبي بكر رضي الله عنه لهذه الكلمات انفجر باكياً حيث كان أول من فهم، من عميق حبه للنبي ﷺ أن محمداً ﷺ كان يتكلم عن نفسه وعن رحيله الوشيك. فهو النبي ﷺ من روعه، وبينما كان يواصل خطابه للمصلين، خاطب مباشرة قلب أبي بكر رضي الله عنه معترفاً على رؤوس الأشهاد، بما هو مدين به من محبته أبي بكر رضي الله عنه العميقة والقوية: «إن أمن الناس علي في صحبته وماله هو أبو بكر. ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته»⁽²⁵⁾. كان تواصلهما علنياً، لكنه كان في الواقع فريداً وشخصياً وسرياً، فعبرت دموع أبي بكر رضي الله عنه عن حبه وسددت الدين. لقد أحب، وفي تلك اللحظة بالذات، فهم.

الرحيل

عاد النبي ﷺ وأوى إلى حجرة عائشة - رضي الله عنها - وقال للصحابة الذين زاروه لاحقاً بأنه يرغب في أن يتم تدوين آخر توصياته. فأعرب عمر رضي الله عنه عن تحفظاته بسبب حالة النبي ﷺ، بينما أيد آخرون

الفكرة ورفعوا أصواتهم عند النبي ﷺ الذي طلب منهم الانسحاب لأنه لم يكن يستطيع سماعهم وهم يتجادلون، وعلى أي حال لم يلبّ طلبه، مع أنه أعرب عن بضع توصيات أخرى شفويّاً بشأن الإيمان والممارسة وصيانة الكعبة، ثم أراد الذهاب إلى المسجد، لكن ألمه كان من الشدة عندما حاول النهوض حتى أنه أغمي عليه، وبعد صحوته حاول النهوض لكنه أغمي عليه ثانية، وبعد صحوته الثانية أعاد السؤال ذاته وقيل له إن المسلمين لا يزالون ينتظرونه، فقال لعائشة - رضي الله عنها - بأن يصلي الناس وأن يؤمهم أبو بكر ﷺ.

وطلب منها ذلك في الأيام اللاحقة أيضاً، ولكن كان كلما فعل ذلك، كانت عائشة - رضي الله عنها - تطلب بأن يعفي والدها من أن يؤم المصلين، لقد أكدت أنه رفيق الإحساس وأنه كان يبكي عند تلاوة القرآن، وفي كل مرة كانت عائشة - رضي الله عنها - تعترض فيها كانت تحصل على الجواب القاطع ذاته: ليؤم أبو بكر ﷺ الصلاة، كان وراء رقة إحساس أبي بكر ﷺ ودموعه سر، وظل النبي ﷺ جازماً في اختياره، وبعد يومين، بعد أن شعر بقليل من التحسن تمكن من الذهاب إلى المسجد فيما كان المسلمون يصلون صلاة الظهر خلف أبي بكر ﷺ. وقد أراد أبو بكر ﷺ أن يتراجع ويترك المكان للنبي ﷺ، لكن النبي ﷺ منعه من ذلك واكتفى بالجلوس إلى يساره، وأمّ النبي ﷺ بقية الصلاة فيما كان أبو بكر ﷺ يردد، بصوت مرتفع، العبارات التي تقترن بمختلف حركات الصلاة.

كانت هذه آخر مرة يظهر فيها النبي ﷺ في المسجد، وفي اليوم التالي عمل على أن يؤزّع كل ما يملكه حتى آخر درهم فضلاً عن درعه واستمر

في تقديم النصائح، وكرر مراراً وتكراراً بوجوب حسن معاملة الرقيق والفقراء ورقيق الحال، وفي صباح اليوم الثاني، وهو يوم اثنين، وعند صلاة الظهر، رفع النبي ﷺ ستارة في حجرة عائشة - رضي الله عنها - مما مكنه من مشاهدة المسلمين في المسجد، وشوهدت ابتسامة على وجهه، وقد دُهِش المسلمون من هذه البادرة وظنوا أن النبي ﷺ سينضم إليهم، لكن الستارة نزلت ولم يعد النبي ﷺ إلى الظهور. وفي الساعات التي أعقبت ذلك، جاءت ابنته فاطمة - رضي الله عنها - لزيارته وتقوّهت بعبارة تتم عن شدة حزنها بشأن شدة ألم النبي ﷺ. هنا قال لها النبي ﷺ: «بعد هذا اليوم سوف ينتهي ألم أبيك». ثم همس في أذنها، كما رأينا سابقاً، بأنها سوف تلحق به عما قريب وهذا ما جعلها تضحك من خلال دموعها. وأخذ الألم يشتد بالنبي ﷺ أكثر فأكثر، ولم يعد النبي ﷺ قادراً على الكلام.

ثم جاءت عائشة - رضي الله عنها - إلى جوار النبي ﷺ وقربت منه ووضعته رأسه على صدرها وأخذت تمر بيدها عليه لتخفيف ألمه. ودخل عبد الرحمن رضي الله عنه، أخو عائشة - رضي الله عنها - إلى الغرفة وبيده سواك وهو مثل فرشاة الأسنان وقد كان يستخدمه المسلمون لتنظيف أسنانهم. فنظر إليه النبي ﷺ بطريقة فهمت منها عائشة - رضي الله عنها - أنه يريد، فقامت بتليينه بضمها وأعطته للنبي ﷺ، الذي قام بفرك أسنانه بقوة مدهشة نظراً لضعفه العام، وهكذا فإن الاهتمام بالنواحي الصحية قد صاحب رسول الله حتى آخر لحظات حياته، لأنه كان يعرف مدى أهمية المحافظة على لياقة الجسم والصحة، ففي حياة الإنسان، إن

لذلك الجسم حقوقاً على الكائن والضمير الذي من الله عليه به، فعلى الإنسان أن يلبي احتياجاته للرفق واللفظ والاهتمام الجنسي، كما يجب عليه المحافظة على لياقته وإحاطته بالشروط الصحية السليمة وحمايته بعناية من كل ما يمكن أن يؤثر على توازنه أو يسبب له المرض، إن الأوضاع والمتطلبات الصحية والاستجابة لاحتياجات الجسم هما بعدان وشرطان للرفق الروحي، وهكذا، ففي اللحظات الأخيرة من حياة النبي ﷺ، حصل على الرقة وفرك أسنانه بقوة؛ مع أن آثار هذا الاهتمام الأخير بالجسد لن يراها أحد على الأرض، فإن الله كان يعلم النية الكامنة وراء تلك الحركة. كان النبي ﷺ قد صرح مرة بأن أحد الأسئلة التي سيسأل عنها المؤمنون يوم القيامة هو عما فعلوه بأجسامهم⁽²⁷⁾. وخلافاً لجميع أوهام الممتلكات الشخصية، فإن الجسد هو من حيث الأساس أمانة مؤقتة في عنق كل كائن بشري، وهنا، أيضاً، لا بد للمرء من أن يفى بدينه قبل المغادرة.

أغلق النبي ﷺ عينيه، كانت عائشة - رضي الله عنها - تضمه إليها وسمعتة يهمس: «الفردوس، مع الرفيق الأعلى...» ثم تلا نهاية الآية: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾⁽²⁸⁾. ثم كر ثلاث مرات: «مع الرفيق الأعلى»⁽²⁹⁾، وفجأة سقطت ذراعه وثقل رأسه وفهمت عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قد لفظ أنفاسه الأخيرة، لقد رحل إلى ربه ومؤدبه وخليله الذي استدعاه إليه ليجد أخيراً السلام الأسمى، الذي يتجاوز عالم البشر الذين أرسل إليهم لتبليغ خاتمة الرسالات من أرحم الراحمين، ومنذ ذلك اليوم، لم تتوقف جماعة المؤمنين الروحية، في جميع أنحاء العالم وعبر العصور، عن الصلاة والسلام على النبي وعن

التلاوة بكل قلوبهم ومحبتهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (30).

الضراغ

انتشر نبأ وفاة النبي ﷺ في أنحاء المدينة وسبب حزناً لا مثيل له، فقد ظهر على الوجوه الفزع والدموع والنشيج وفي بعض الأحيان كان الصراخ يعبر عن شدة الألم، وقد كان النبي ﷺ قد قال بأنه لا بد من التعبير عن الحزن، ولكن دون مبالغة ودون هستيريا وبضبط نفس ووقار، وخيم صمت ثقيل تقطعه التتهديدات والنشيج قرب منزل النبي ﷺ. وفجأة قطع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الصمت وصاح بقوة، كما رأينا، بأن النبي ﷺ لم يمِث وأنه سيعود، مثلما عاد موسى عليه السلام، بعد أربعين يوماً، لقد بلغ حبه درجة كبيرة وكان شعوره بالفراغ شديد العمق حيث إنه لم يستطع أن يتصور ما سيكون عليه المستقبل في غياب الرجل الذي كان يرشدهم ويصاحبهم، والذي كان حبه واهتمامه موضع آيات قرآنية ذاتها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (31). لقد سيطرت عاطفة عمر رضي الله عنه على كيانه، هنا، وصل أبو بكر رضي الله عنه إلى بيت النبي ﷺ وجلس بقرب فراشه ورفع الغطاء الذي وضع فوق جسم النبي ﷺ ووجهه، أخذت الدموع تتهمر من عينيه وتسيل على وجهه عندما أدرك أنه غادرهم، فخرج وحاول إسكات عمر رضي الله عنه الذي كان لا يزال في حالة صدمة عاطفية ويرفض أن يهدئ من روعه، فابتعد عنه أبو بكر رضي الله عنه وخاطب المتجمهرين وتفوه بتلك الكلمات الممتلئة

حكمة وقد أوردناها في المقدمة، والتي تضمنت خلاصة جوهر العقيدة الإسلامية: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»⁽³²⁾. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾⁽³³⁾. وعندما سمع عمر هذه الآية انهار وقد اعترف لاحقاً أنه كان كأنه سمع هذه الآية للمرة الأولى، بالرغم من أنها نزلت منذ وقت طويل، لقد أدرك -مثل بقية المسلمين- أن النبي ﷺ قد رحل ولن يعود وأنه غادرهم وأن الفراغ الذي ساد فجأة يجب أن يملأه منذ ذلك الوقت فصاعداً إيمانهم بالواحد الأحد، الذي «لا يموت». فعليهم أن يدعوه ليساعدهم على أن يجدوا في أنفسهم القوة والصبر والمثابرة التي يحتاجون إليها لمواصلة العيش من دون رسول الله ﷺ، ولكن دائماً في ضوء قدوته.

رغم قوة شخصية عمر رضي الله عنه، فإنه فقد السيطرة على نفسه مدة من الوقت، فقد سيطر عليه شعوره بسيطرة قوية كشفت عن هشاشة لم تكن حتى ذلك الوقت موضع شك، وجعلته يتصرف مثل الطفل الذي يرفض حكم الله والواقع والحياة، وعلى النقيض من ذلك، فقد تلقى أبو بكر رضي الله عنه، الذي كان عادة رقيق الشعور يبكي بغزارة وعمق عند قراءة القرآن، تلقى نبأ وفاة النبي ﷺ بحزن عميق ولكن بهدوء خارق وقوة داخلية لم يكن يتصورها أحد، في هذه اللحظة بالذات، انعكس دور الرجلين وتبين أنه قدم لنا، من خلال رحيله، درساً نهائياً، من الأعماق الروحانية المضيئة، وهو أن رقة الإحساس يمكن أن تتسج درجة من القوة لا تتزحزح، ومن

جهة أخرى، فقد تصبح، أقوى الشخصيات، إذا نسيت نفسها للحظة، واحدة شديدة التأثير وهشة، إن طريق الحكمة والقوة بالله يؤدي لا محالة إلى إدراكنا لنقاط ضعفنا، وهي لن تتركنا أبداً والذي هو أقرب إلينا من حبل الوريد يوصينا بأن نتقبلها - بثقة، مثلما فعل أبو بكر رضي الله عنه، وبعمق، كما فعل عمر رضي الله عنه، ولكن دائماً بتواضع.

